منهج ابن سعد

في السيرة وتراجم الصحابة والتابعين

للدكتور إسماعيل سالم عبد العال
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

تعريف بابن سعد صاحب (الطبقات الكبرى) [1]:

هو أبو عبد الله محمد بن سعد الزهري البصري ولد سنة ١٦٨هـ بالبصرة وتوفي سنة ٢٣٠هـ ببغداد. وقد تلقى العلم على كبار الشيوخ في عصره كسفيان بن عيينة وأبي الوليد الطيالسي، ووكيع بن الجراح وسعيد بن منصور وغيرهم. وصاحب الواقدي وأخذ عنه، وكتب له حتى أُطلق عليه «كاتب الواقدي».

وقد شهد كثير من العلماء بنبوغه في علوم الحديث والسيرة وأخبار الصحابة والتابعين، والفقه وعلم الأنساب وغير ذلك. فهذا ابن خلكان يصفه بقوله: «وكان صدوقاً ثقة، كثير العلم، غزير الحديث والرواية». وقال الحافظ أبو بكر البغدادي: «ومحمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه، فإنه يتحرى في كثير من رواياته». . بل إن السخاوي فضّله على أستاذه الواقدي، فقال إنه «ثقه مع أن أستاذه ضعيف».

ويبدو مما كتبه المترجمون عن ابن سعد أنه لا تتوافد لدينا المعلومات الكافية، التى تتصل بنشأته وحياته ونشاطه العلمي لنرسم صورة دقيقة لسيرته حتى إنك لتجد صاحب البداية والنهاية [2] يترجم له فيما لا يتجاوز السطر الواحد، فمن المفارقات أن ترى الشخص الذى حفظ لنا الصفات الخلْقية والخُلقية وأدق المظاهر أحياناً عن حياة الأشخاص، لا يجد من يكتب عنه ترجمة موضحة كما يقول الدكتور إحسان عباس [3].

وتتضح معالم مؤلف الطبقات وشخصيته العلمية - فضلاً عما بقي من أوصاف المترجمين له - مما خلفه لنا من مؤلفات، ومن صلاته العلمية بشيوخه وأقرانه وتلاميذه. وقد كانت بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل صلات وطيدة، تتضح في

---

(١) انظر في ترجمته: الفهرست لإبن النديم: ١٤٥ طبعة دار المعرفة ببيروت وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤/ ٣٥١-٣٥٢ ترجمة رقم ٦٤٥ تحقيق دكتور إحسان عباس، دار الثقافة لبنان، كشف الظنون لحاجي خليفة: ٢/ ١١٠٣-١١٠٤ الطبعة الثالثة، دائرة المعارف الإسلامية: المجلد الأول: ١٩٠، وتاريخ بغداد للخطيب البغداي ٥/ ٣٢١ وغير ذلك.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ١٠/ ٣٠٣ طبعة دار المكر بيروت.

(٣) انظر تقديمه للطبقات: ١/ ٦ طبعة بيروت، دار صادر، ودار بيروت ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م.

إطلاع الإمام أحمد في كل جمعة على جزأين من حديث الواقدي مما لدى ابن سعد روايته وتلميذه.

وذكرت بعض كتب التراجم أن تلاميذ ابن سعد كثيرون، منهم ابن أبي الدنيا، والبلاذري، والحارث بن أبي أسامة وغيرهم.

كتبـــه :

الطبقات الكبرى : لم يذكر المترجمون لإبن سعد من المؤلفات سوى الطبقات الكبرى، والطبقات الصغيرة، وهو منتخب من الكتاب الأول كما نص صاحب كشف الظنون (٤) «وله أخبار النبي كما ذكر ابن النديم في الفهرست (٥) وهو في الحقيقة ليس إلا الجزء الأول من كتاب الطبقات. أي أن الكتابين الأخيرين ليس إلاّ أجزاء مستخرجة من الطبقات الكبرى، الذى على مر الزمن من مؤلفات ابن سعد» وإذا كان المترجمون له قد وصفوه بغزارة العلم، وسعة الإطلاع وتفوقه في كثير من علوم العربية، وبكثرة تصانيفه، فإن إنتاجه العلمي قد اندثر وطواه الزمن حتى ضنّ علينا بمعرفة أسماء مؤلفاته، وموضوعاتها اللهم إلا الطبقات وهو موضوع دراستنا.

وقد اختصر السيوطي كتاب الطبقات هذا في مؤلف أسماه (انجاز الوعد المنتقى من طبقات ابن سعد (٦).

وفي أوائل هذا القرن نشر بعض المستشرقين الألمان كتاب الطبقات تحت إشراف سخاو، وكان من بينهم هورفتز ومتوخ وبروكلمان وغيرهم، ثم كانت آخر طبعة منه ما أخرجته دار بيروت ودار صادر (٣٧٦هـ - ١٩٥٧م). في ثمانية مجلدات.

موضوع الطبقات الكبرى :

يتناول كتاب الطبقات الكبرى موضوعين أساسيين، الأول سيرة الرسول ﷺ، وقد شملت المجلدين الأولين إلا يسيراً، والثاني تراجم الصحابة والتابعين وقد شغل المجلدات الباقية إلا الأخير الذي خصصه للنساء.

---

(٤) انظر : ٢/١١٠٣ من كشف الظنون.

(٥) الفهرست : ١٤٥.

(٦) انظر : كشف الظنون : ٢/١١٠٣.

فأما السيرة فقد شملت توطئة للحديث عن مولد النبي - ﷺ - بذكر بعض الأنبياء السابقين عليه، ونسبه لأبيه وأمه وبعض الأحداث الكبرى كوقعة الفيل وغير ذلك، ثم يتناول المؤلف بالتفصيل ولادته - ﷺ - ونشأته، وتجارته، وزواجه وأولاده، واختلاءه، وإرهاصات النبوة قبل الوحي، وعلاماتها بعده وكيفية بدء الوحي والدعوة، والعنت المادي والنفسي الذى وقع برسول الله وأصحابه، والهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وتأسيس الدولة الجديدة على المؤاخاة وبناء مسجد قباء، ودعوة الرؤساء والملوك إلى الإسلام، وذكر وفود العرب التى جاء لرسول الله ﷺ.

وقد تعرض المؤلف إلى ذكر الصفات الخلْقية والخُلُقية لرسول الله ﷺ كصفة كلامه وقراءته، وحُسن خلقه وعشرته، ومأكله وصلاته وقناعته، وغير ذلك مما استقصاه المؤلف حتى ليتحدث عن سواكه ومشطه ونعله.

ويتناول صاحب الطبقات كذلك صفحة الجهاد في المدينة فيعرض السرايا والبحوث والغزوات التى حدثت بين المسلمين والمشركين واليهود ويسردها سرية سرية، وغزوة غزوة. ثم يتحدث عن حجة الوداع، ومرضه ﷺ وتمريضه، وموته، ودفنه ورثائه.

وأتبع ابن سعد السيرة بذكر من كان يفتى في المدينة ويقتدى به على عهد رسول الله ﷺ وبعد ذلك وإلى من انتهى علمهم، وذكر من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ وذكر من كان يفتى بالمدينة بعد أصحاب رسول الله ﷺ من أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم.

وأما تراجم الصحابة والتابعين فقد وضعها في طبقات، وهذا ما يفهم من عنوان كتابه، بادئاً بالطبقات الكبرى في الإسلام، مراعياً سوابق الصحابة إلى الإسلام ونصرته والتضحية والهجرة من أجله. لذلك كانت الطبقة الأولى عنده البدريين من المهاجرين ثم البدريين من الأنصار، والطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار ولم يشهدوا بدراً ثم الصحابة الذين أسْلَمُوا قبل فتح مكة. فالعنصر الزمني واضح في هذا التقسيم، ولعله اقتدى بعمر بن الخطاب حين دون الدواوين وقسم العطايا حسب سوابقهم في الإسلام. ثم استخدم العنصر المكاني كذلك فترجم للصحابة والتابعين على أساس المدن التى نزلوها. وبدأ أولاً بالمدينة المنورة، وقسّم من نزل فيها إلى طبقات، ثم من نزل مكة من الصحابة والتابعين فقسمهم إلى طبقات كذلك،

ثم الطائف واليمن واليمامة والبحرين والكوفة والبصرة، وواسط، والمدائن وبغداد، وخراسان، والشام، والجزيرة، ومصر، وأيلة، وإفريقية والأندلس.

وفي المجلد الأخير الذى اختص به النساء، يبدأ بالسيدة خديجة ثم بنات رسول الله ﷺ وعماته، وبنات عمومته وأزواجه، ثم استطرد في كيفية معاملته ﷺ لنسائه، ثم تناول الترجمة للنساء للمسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم، ثم غرائب نساء العرب المسلمات المهاجرات المبايعات، ثم نساء الأنصار. واختتم كتابه بالنساء اللواتى لم يروين عن رسول الله ﷺ، وروين عن أزواجهن وغيرهن.

ومن الملاحظ أن الاعتبار الزمني الذى راعاه المؤلف في تقسيم الطبقات قد اعتبر كذلك أثناء التقسيمات المكانية، عند الصحابة والتابعين أيضاً، وقد أدى ذلك إلى تكرار الترجمة للشخص الواحد في أكثر من موضع، فأبو موسى الأشعري - مثلاً - يترجم له في مَنْ كان يفتى في المدينة : ٢/ ٣٤٤، وفي الطبقة الثانية من المهاجرين : ٤/ ١٠٥ وفي الصحابة الذين نزلوا بالكوفة : ٦/ ١٦ وهكذا. ولكن هذه الملاحظة لم تفت المؤلف، فوجدناه يطيل في الترجمة في موضع واحد، ويوجز في الآخرين. وأيضاً، فإن ابن سعد أطال وأفاض في تراجم الصاحبة وكبار التابعين، المتقدمين في طبقاتهم، بحيث تتضاءل الترجمة كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى وقلت السوابق في الإسلام.

مصادره :

يعتمد ابن سعد في مصادر طبقاته بالدرجة الأولى على الروايات والأسانيد التى تمثل نشاطاً علمياً واسعاً في علوم الحديث والسيرة والأنساب، وتاريخ الأنبياء، والتراجم الذاتية للصحابة والتابعين وغير ذلك.

وإنه ليتضح للدارس أن روايات ابن سعد قد اعتمدت على القرآن الكريم كمصدر أساسي موثّق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) (٧) وبخاصة في الجزء الذى تناول قصص الأنبياء وتاريخ بدء الخلق والسيرة النبوية ووقائعها.

---

(٧) سورة فصلت : آية ٤٢.

وقد كانت السنة النبوية ركيزة أصيلة، ومصدراً أساسياً في طبقات ابن سعد بل إنه ليصح القول بأن مؤلفه تضمن من الروايات والأسانيد الموثقة في علم الحديث. ما يشهد لصاحبها بأنه «أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرّين كما قال ابن حجر العسقلاني، وجعل كتابه من الوثائق التاريخية المهمة في علم السنة والسيرة.

وقد تلقى ابن سعد تلك الروايات الكثيرة بطرق مختلفة، أهمها ما أثبته عن كبار الحفاظ من المُحَدّثين في عصره، وبخاصة شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم، ومن أمثلتهم:

محمد بن عمر الواقدي : في مواضع كثيرة.
وكيع بن الجراح : ٢/ ١٩٢، ٣٠٠ ومواضع كثيرة.
سعيد بن منصور : ١/ ٢٤، ٢/ ٣٧٦ ومواضع كثيرة.
أبو الوليد الطيالسي : ٢/ ٧٠، ١٤٢، ٤/ ١٥٥ ومواضع كثيرة.
سفيان بن عينية : ٢/ ٣٤٤، ٣٦٦ ومواضع كثيرة.
الفضل بن ركين : ١/ ٢٢٤، ٢/ ٧٢ ومواضع كثيرة.
إسماعيل بن إبراهيم الأسدي : ١/ ١١٠، ٤/ ١٤٨ ومواضع كثيرة.
عبد الله بن محمد بن أبي شيبة : ٢/ ١١٣ ومواضع كثيرة.
سليمان بن داود الطيالسي : ٢/ ٩٨، ٤/ ٨٩ ومواضع كثيرة.
محمد بن عبد الله الأسدي : ٢/ ١٠٣، ٣/ ٣٢٨ ومواضع كثيرة.
الليث بن سعد : ٢/ ١٤٤، ٤/ ٨٩ ومواضع كثيرة.
يزيد بن هارون : ١/ ٤٧٨، ٢/ ١١٣ ومواضع كثيرة.

وغير هؤلاء كثيرون وقد صنف بعضهم في علوم الحديث والسيرة ما يُعد من المراجع الأصيلة في المكتبة العربية الإسلامية كسنن سعيد بن منصور المتوفى سنة ٢٢٧هـ، ومسند أبي داود الطيالسي [٨] المتوفى سنة ٢٠٣هـ. وتفسير وكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ وهو تفسير يعتمد على المأثور من الروايات، وبقية

(٨) والكتاب مطبوع بحيدر آباد بالهند سنة ١٣٢١هـ.

شيوخه من الأعلام البارزين في علوم الإسلام والعربية، كالليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون، وغيرهم، ممن وثقهم علماء الجرح والتعديل.

وقد اتصلت روايات بعض شيوخه ومعاصريه إلى كثير ممن كتبوا في السيرة وألفوا فيها. ومن أمثلة ذلك ما رواه عن : إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني بسنده إلى وهب بن منبه : ١/ ٢٧، ٢/ ٨٠ الذى صنّف كتاباً اسمه «المبتدأ» كما ذكر ابن النديم في الفهرست (٩).

وما رواه عن عبد الله بن محمد بن أبى شيبة فيما يتصل بسنده إلى محمد بن اسحاق ابن يسار صاحب السيرة المعروفة : ٢/ ١٣٣، وكذلك تتصل رواية رؤيم بن زيد المقرىء بمحمد بن اسحاق بن يسار : ١/ ٥١، ٥٧.

واتصلت رواية إسماعيل بن عبد الله بن أبى أويس بالإمام الزهري : ٢/ ١٣٩ الذى كان أستاذاً لابن إسحاق، ولموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ صاحب المغازي.

وفي علم الأنساب نجد روايات هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ تشيع كثيراً عندما يتعلق الأمر بتاريخ الجاهلية أو نسب القبائل والأفراد. وقد كان هشام وأبوه كذلك على دراية واسعة بتاريخ العرب قبل الإسلام وأنسابهم وأيامهم، وأخبار الصدر الأول من المسلمين.

أما شيخه الذى تردد إسمه كثيراً، ونقل عنه العديد من مروياته فهو محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ الذى صنّف «الطبقات» وكتباً أخرى تتعلق بالسيرة النبوية، أفاد منها ابن سعد كالسيرة والمغازي وأزواج النبي ﷺ وغير ذلك، وقد أدّت كثرة النقول للمرويات إلى أن اتهم «ابن النديم» قديماً في كتاب «الفهرست» (١٠) بأنه ألف كتبه من تصنيفات الواقدي، وردّد هذا الاتهام بعض المعاصرين (١١).

وإذا كانت مصنفات ابن سعد فُقدت، ولم يبق منها إلا «الطبقات الكبرى» فإن

---

(٩) الفهرست : ١٤٥.

(١٠) الفهرست : ١٤٥.

(١١) انظر : تقديم الدكتور إحسان عباس للطبقات : ١/ ١٠.

هذا الاتهام تعميم للحكم على كل مصنفاته، التى لا نستطيع الحكم عليها إلا بعد دراستها، والموازنة بينها وبين كتب الواقدي.

وكتاب «الطبقات» ليس تكراراً لما ألّفه الواقدي من قبل، بل فيه الكثير من الروايات والأسانيد التى لا نجدها عن الواقدي، وروي عن شيوخه ومعاصريه - وهم عشرات - كما ذكر صاحب الاتهام نفسه العديد من الروايات والأخبار، بل إن الدكتور إحسان عباس الذى ردّد اتهام ابن النديم قد قال: «إن هناك فصولاً استجدها ابن سعد لم يرد فيها ذكر للواقدي إطلاقاً مثل (ذكر كنية رسول الله ﷺ): ١/ ١٠٦-١٠٧، ومثل (ما عوذه به جبريل): ٢/ ٢١٠-٢١٤ [١٢]. «ونضيف إلى ذلك مروياته عن نوح عليه السلام: ١/ ٤٠-٤٥، وأخباره عن غزوة الحديبية: ٢/ ٩٥-١٠٥، وفي تراجم الصحابة والتابعين كثير من تلك النماذج، مما يدفعنا إلى رد هذا الاتهام، وبخاصة إذا علمنا أن ابن سعد صنّف كتابه على طريقة الرواية، منتقياً لرواتها، وأسانيدها من بين ذاك الحشد الهائل من المرويات التى وجدت في عصره، ثم إن كتابه قد ضم بين دفتيه كثرة هائلة لروايات شيوخه ومعاصريه. فما الذي يمنع انتقاءه لروايات أخرى لشيخه الواقدي وقد كان ابن سعد تلميذه وروايته دون أن نلصق بها تلك التهمة؟!.

منهج ابن سعد في السيرة وتراجم الرجال:

طريقة الإسناد:

تميزت العلوم الإسامة في مصادرها الأولى باستخدام طريقة المحدثين في رواية الأخبار والأحداث، بإسناد الروايات إلى أصحابها وقد عرف ابن حزم الإسناد بأنه «نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ - مع الاتصال خص الله به المسلمين، دون سائر الملل [١٣] «وقد استخدم ابن سعد تلك الطريقة التى اتبعت في جمع الأحاديث النبوية، أول مرة، بل إن كُتّاب السيرة والتاريخ جمعوا كثيراً من رواياتهم عن رواة الأحاديث أنفسهم، واتبعوا فيها المنهج العلمي الدقيق القائم على أسس «علم

---

(١٢) انظر: تقديمه للطبقات: ١/ ٩-١٠ الفصول المشار إليها في طبعة سنة ١٩٥٧.

(١٣) قواعد التحديث للإمام محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي: ٢٠١ تحقيق محمد البيطار طبعة عيسى الحلبي.

الجرح والتعديل» توثيقاً للروايات وتمحيصاً لها، وتمييزاً لصحيحها من ضعيفها، وكشفاً لأهل الكذب والغفلة والمدلّسين وغيرهم.

ومن فوائد طريقة الإسناد - كذلك - أن الخبر الواحد، أو الواقعة قد تروى بطرق متعددة، يقوى بعضها بعضاً، مما يقلل من احتمال الكذب، بل لو كانت هذه الطريقة ضعيفة فإن عدم الاتفاق فيما بينها عادة يوجب العلم بمضمون المنقول (أي بالقدر المشترك في أصل الخبر) وهذا ينتفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين (أي نزعاتهم والجهة التى يحتمل أن يتعصب لها بعضهم) وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول والسيىء الحفظ، وبالحديث المرسل ونحو ذلك كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية (١٤).

وقد كان ابن سعد - كما سبق أن ذكرنا - من كبار رجال الحديث في عصره المتحرين، المدققين، جمع رواياته، وانتقاها من بين حشد هائل من المأثورات. حتى قدمه بعض العلماء على شيخه الواقدي. ويرى الدارس لكتابه أن المؤلف كان يرصد الروايات ويضعها تحت عنوان يجمعها واحدة تلو الأخرى، دون تعقيب أو تفنيد. وكأن الغاية من هذا العمل هو استيعاب الروايات التى تصح عنده، والمحافظة على إسنادها وكيفية اتصالها. أو أن القصد هو تسجيل الأخبار التى بلغته، وشاعت في عصره دون تحمل للمسئولية ببيان درجتها، صحة أو ضعفاً، بل يتحملها للقارىء أو السامع على حد قولهم: «من نقل إليك فقد حمّلك». لذا يجب على الدارس للحديث أن يعرض هذه الروايات على قواعد الجرح والتعديل ليمحصها ويبين الغث من السمين ويحق الحق، ويبطل الباطل.

ونسوق ثلاث روايات - كنموذج من رواياته - ذكرها في فصل (علامات النبة بعد نزول الوحي):

أخبرنا مسلم بن إبراهيم، أخبرنا الحارث بن عبيد الأيادي، أخبرنا سعيد بن إلياس أبو مسعود الجريري عن عبد الله بن شفيق عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية «والله يعصمك من الناس» (١٥) قالت: فأخرج رسول

الله ﷺ رأسه من القبة لهم فقال : «أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله من الناس».

أخبرنا الفضل بن دكين قال : أخبرنا طلحة بن عمرو عن عطاء عن النبي ﷺ قال : إنّا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا.

أخبرنا هوذة بن خليفة بن عبد الله بن أبى بكرة، أخبرنا عوف عن النبي ﷺ قال : «تنام عيناي ولا ينام قلبي» (١٦).

وفي ترجمة الصحابة والتابعين سار على النهج نفسه، يقول في ترجمة الصحابي عبد الرحمن بن أبى عقيل الثقفي : أخبرنا أحمد بن يونس قال : حدثنا زهير قال : حدثنا خالد بن يزيد الأسدي قال : حدثنا عون بن أبى جحفية السوائي عن عبد الرحمن بن علقمة الثقفي عن عبد الرحمن بن أبى عقيل قال : انطلقت إلى رسول الله ﷺ في وفد فَأنخنا بالباب، ما في الناس أبغض إلينا من رجل نلج عليه، فما خرجنا حتى ما في الناس رجل أحب إلينا من رجل دخلنا عليه (١٧).

ويكفى أن تلقى نظرة على الطبقات لتجد هذا الحشد الهائل من الروايات والأسانيد التى اختفت وراءها شخصية ابن سعد، وليس له فيها إلا الانتقاء والاختيار، والترتيب والتنسق، وإن المرء ليجهد نفسه حتى يعثر على تعليق هنا، أو نقد هناك فلا يجد شيئاً، وإذا وجد فإنه لايتجاوز بضع كلمات في غالب الأمر، لينتقل بعده إلى روايات أخرى.

يعلق على شعر لخالدة بنت هاشم بن عبد مناف ترثى أباها فيقول : «وهو شعر فيه ضعف» (١٨).

ونقل عن محمد بن عمر الواقدي - شيخه - رواية عن ابن بريدة عن أبيه تذكر أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة أتى قبراً فجلس إليه وجلس الناس حوله، فجعل كهيئة المخاطب ثم قام وهو يبكى فاستقبله عمر، وكان من أجرأ الناس عليه، فقال : بأبى أنت وأمي يارسول الله ! ما الذى أبكاك؟ فقال : هذا قبر أمي، سألت ربى الزيارة فأذن لي، وسألته الاستغفار لم يأذن لي، فذكرتها فرفقت فبكيت، فلم ير يوماً كان

---

(١٦) الطبقات الكبرى : ١/ ١٧١.

(١٧) المصدر السابق : ٦/ ٤١.

(١٨) المصدر السابق : ١/ ٨٠.

اكثر باكيا من يومئذ. قال ابن سعد ناقداً تلك الرواية : وهذا غلط، وليس قبرها بمكة، وقبرها بالأبواء (١٩).

ويرجح ابن سعد - أحياناً - بعض الروايات على بعض، ففي تاريخ وفاة والد النبي ﷺ يذكر بعض الروايات التى تقرر أنه توفى ورسول الله ﷺ يومئذ يحمل، ولعبد الله يوم توفى خمس وعشرين سنة. ويروى عن هشام بن السائب أنه توفى بعد ما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرون شهراً، ويقال سبعة أشهر قال ابن سعد والأول أثبت أنه توفى ورسول الله ﷺ حمل (٢٠).

وفي التراجم لا يدلى برأيه كذلك إلا نادراً، ولا يعلق على مضمون الروايات إلا قليلا. في حديثه عن محمد بن الحنفية بن علي بن أبى طالب يسوق الروايات التى بلغته في سيرته، وأنه توفى عن خمس وستين سنة لا يستكملها ثم يعقب على ذلك بقوله : «ولا نعلم أنه روى عن عمر شيئاً» (٢١).

وقد يتردد صاحب الطبقات فلا يرجح شيئاً، يقول في شأن المرأة التى عرضت نفسها على عبد الله بن عبد المطلب : «لقد اختلف علينا فيها، فمنهم من يقول كانت قُتَيْلة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل. ومنهم من يقول : «كانت فاطمة بنت مر الخثعمية» (٢٢).

وهكذا نرى أن ابن سعد قد ضَنَّ برأيه في كثير من المواضع. ولم ينتقد تلك الروايات التى احتواها كتابه، إلا في القليل النادر، وإذ كان بعض المعاصرين (٢٣) قد اعتقد أن المادة التى نقلها ابن سعد في رواياته قد وجهت بالنقد الضمني لأنه تحرى قبل نقلها أن تكون في الأكثر مأخوذة عن العدول الثقات فإنا كنا نود من المؤلف نقداً صريحاً تبدو فيه شخصيته عرضاً وترجيحاً، إذ ليست كل الروايات على درجة واحدة من الحسن والصحة، أو القوة والوهن بل بعضها يرجح البعض الآخر، ولكن المؤلف - رحمه الله - آثر حشد هذه الروايات وجمعها وتنسيقها، بعد انتقائها،

---

(١٩) المصدر السابق : ١/١١٧.
(٢٠) انظر : الطبقات الكبرى : ١/١٠٠.
(٢١) انظر : المصدر السابق : ٥/١١٦.
(٢٢) المصدر السابق : ١/٩٥.
(٢٣) انظر : تقديم الدكتور إحسان عباس للطبقات : ١/٧.

تاركاً تمحيصها، وبيان درجاتها وفقاً لمنهج الجرح والتعديل للأجيال اللاحقة.

قلة الأسطورة والخرافة :

لا تشيع الأسطورة والخرافة في كتاب «الطبقات» وتقل تلك الروايات الإسرائيلية المنكرة، التى تحمل بين طياتها أخباراً واهية باستثناء الجزء الذى تناول فيه المؤلف أخبار الأنبياء السابقين، وتاريخ العرب قبل الإسلام فقد ذكرت فيه بعض هذه الروايات التى لم ينتقدها ابن سعد.

من ذلك ما رواه عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه - وأبوه ضعيف في رواياته - عن أبى صالح عن ابن عباس فيما يذكره عن آدم قال : «فلما حج آدم، وضع الحجر الأسود على (جبل) ابن قبيس، فكان يضيء لأهل مكة في ليالي الظُلَم كما يضيء القمر، فلما كان قبيل الإسلام بأربع سنوات، وقد كان الحُيّض والجُنُب يصعدون إليه يمسحونه، فاسود فأنزلته قريش من أبى قبيس وحج آدم من الهند إلى مكة أربعين حجة على رجليه، وكان آدم حين أُهبط يمسح رأسه بالسماء فمن ثم صلع وأورث ولده الصلع، ونفرت من طوله دواب البر فصارت وحشاً من يومئذ، فكان آدم وهو على ذلك الجبل قائماً يسمع أصوات الملائكة ويجد ريح الجنة، فحط من طوله ذلك إلى ستين زراعا فكان ذلك طوله حتى مات[٢٤]، فتلك رواية تحمل أخباراً إسرائيلية، بادياً عليها الكذب والاختلاق، ولعلها من وضع بنى إسرائيل ومما روّجوه من أساطير وخرافات ليفسدوا على المؤمنين دينهم، ويشغلوهم عن قضاياهم الأصيلة.

ومماذكر بالإسناد السابق نفسه أن آدم تغشّى حواء «فَحَمَلَتْ حَمْلاً خفيفاً فَمَرَتّ به[٢٥] فجاء هذا الشيطان في غير صورته فقال لها : يا حواء ما هذا في بطنك؟ قالت : لا أدرى! قال : فلعله يكون بهيمة من هذه البهائم؟ ثم قالت ما أدرى، ثم أعرض عنها حتى إذا هي أثقلت أتاها فقال : كيف تجدينك ياحواء؟ قالت : إنى

---

(٢٤) الطبقات الكبرى : ١/ ٣٥.

(٢٥) سورة الأعراف : ٧/ ١٨٩.

لأخاف أن يكون كالذى خوفتنى، ما أستطيع القيام إذا قمت قال: أفرأيت إن دعوت الله فجعله إنساناً مثلك ومثل آدم تُسَمّيه بي؟ قالت نعم، فانصرف عنها، وأخبرت آدم بالخبر، فلم يكن لهما هَمّ غيره حتى وضعته فذلك قول الله تعالى: ﴿دَعَوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين﴾ (٢٦) فكان هذا دعاؤهما قبل أن تلد، فلما ولدت جاء هذا الشيطان وطلب أن تفي بوعدها فسألته عن إسمه وكان إسمه عزازيل، ولو تسمى به لعرفته فقال: أسمى الحادث، فسمته عبد الحادث فما يقول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهم، فَتَعالَى الله عما يُشركون﴾ (٢٧).

ونحن ننزه آدم وحواء، وقد خلقهما الله بيده المباشرة وخاطبهما بغير واسطة. وأسجد لآدم ملائكته من أن يتورطا في هذا الشرك وأن يستجيبا لداعي الشيطان في أمر يخرجهما من حظيرة الإيمان إلى هوة الشرك حتى تنزل فيهما آية قرآنية تصمهما بالكفران بعد الإيمان!! وما من شك في أن هذه إسرائيليات مفضوحة أشاعها يهود ليلبسوا الحق بالباطل، ويزيفوا بها أفئدة مؤمنة وعقائد ثابتة.

وفي حديث ابن سعد عن القرون والسنين التى بين ادم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، يذكر رواية عن شيخه الواقدي عن غير واحد من أهل العلم كما يقول جاء فيها أن بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مائة سنة، وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون، والقرن مائة سنة، وبين إبراهيم وموسى بن عمران عشرة قرون (٢٨) أي أن المدة الزمنية بين آدم وإبراهيم عشرون قرنا، وهذا ما نصت عليه التوراة بالفعل. مما يؤكد يقيناً أن هذه الروايات - وأمثالها - مدخولة على تراثنا الإسلامي. وتستطيع أن ترجع إلى سفر التكوين في التوراة الاصحاحات ٤، ٥، ١١، ٢١، ٢٥ لتجد معطيات غاية في التحديد الزمني عن كل أسلاف إبراهيم من صلب مباشر منذ آدم،

---

(٢٦) سورة الأعراف: ٧/ ١٨٩.
(٢٧) سورة الأعراف: ٧/ ١٩٠.
(٢٨) انظر: الطبقات الكبرى: ١/ ٥٣.

تعطى مدة حياة كل منهم، وعمر الأب عند ميلاد الإبن، ولو أنشأنا جدولاً (٢٩) من هذه المعطيات فإنا نستنتج أن إبراهيم - كما تقول التوراة قد رأي النور في عام ١٩٤٨ بعد آدم. ولندع الدكتور الطبيب الفرنسي موريس بـوكـاي، المستشرق المعـاصر في كتابه العظيم (القرآن والتوراة والانجيل والعلم) (٣٠) يناقش هذه الرواية بنفسه : «وعندما نعرف أن مؤلفاً مثل سفر التكـوين قـد عُدّل على الأقل مـرتين، وهـذا على مدى ثلاثة قرون، فكيف ندهش حين نجـد فيـه أمـوراً غير معقـولـة، أو روايـات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء، منذ أن سمح تقدم المعـارف البشريـة، إن لم يكن بمعرفة كل شيء، فعلى الأقل بامتلاك معـرفـة كـافيـة عن بعض الأحـداث تسمح بإقامة الحكم على درجة اتفاق الروايات القديمة بهذه المعرفة (٣١).

ولا يوجد لدينا نصر قرآني، ولا حـديث نبـوي مـوثّق يتعلق من قـريب أو بعيـد بتحديد الزمن بين تلك القرون، وما كان أحرى ابن سعد أن يعرض صفحاً عن هذه الروايات التى أغنانا الله عنها وكفانا بتنزيلـه الحميـد. ولكنـا نقـرر - إحقـاقـاً للحق وإنصافاً لإبن سعد - أن تلك الروايات المجـروحـة، والتى روجهـا يهود، قليلـة في كتابه، لا تكثـر إلا في تـاريخ مـا قبل الإسـلام، وتقل في تنـاولـه السيرة، وتـراجم الصحابة والتابعين.

كيفية عرض ابن سعد لوقائع السيرة والتراجم :

لقد كان ابن سعد يجمع الروايات في الموضوع الواحد بعد انتقائها، ثم يضعهـا في إطار يشملها تحت عناوين فرعية متعددة في غالب الأحيان، دون أن يعلق عليها، أو يدلى برأيه فيها. واكتفى بانتقائه لها، وتنسيقه إياها.

---

(٢٩) أنشأ هذا الجدول فعلاً الدكتور موريس بوكاي في كتابه «القـرآن والتـوراة والإنجيل والعلم» : ٤٩ وخلص إلى النتيجة المشار إليها. وقد أقام هذا الجدول من قبله العلامة الباجي المتوفي سنـة ٧١٤هـ في نسخ التوراة الثلاث العبرية والسامريـة واليـونـانيـة وكـانت الأعمار هكـذا بـالترتيب السـابق : ١٦٥٦، ١٣٠٧، ٣٣٦٣ سنة.

انظر : «على التواة» تحقيق الشيخ حجازي السقا الطبعة الأولي بمصر سنة ١٤٠٠هـ.

(٣٠) هذا الكتاب دراسة للكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، وقد ترجم إلى عدة لغات، وترجمته دار المعارف ونشرته منذ فترة طويلة.

(٣١) القرآن والتوراة : ٥٤ دار المعارف.

وهذا نموذج عن مراحل الدعوة وتطورها ساقه ابن سعد في السيرة تحت عنوان: «ذكر دعاء رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام» وذكر فيه عدة روايات، الرواية الأولى عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: أمر رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاءه من عند الله، وأن ينادى الناس بأمره، وأن يدعوهم إلى الله، فكان يدعو من أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بظهور الدعاء (الدعوة).

ويذكر في الرواية الثانية قوله تعالى: «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين» (٣٢). وينقل عن هوذة بن خليفة أنه رسول الله ﷺ.

وبسنده عن الزهري أن رسول الله ﷺ دعا إلى الإسلام سراً وجهراً، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أن غلام بنى عبد المطلب ليُكلم من الله فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر فشنفوا (٣٣) لرسول الله ﷺ عند ذلك وعادوه.

ويحكى عن ابن عباس أنه قال: لما أنزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٣٤)، صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: يامعشر قريش: محمد على الصفا يهتف، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا: ما لك يا محمد؟ قال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟ قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذباً قط. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يابني عبد المطلب، يابني عبد مناف، يابني زهرة، حتى عدّد الأفخاذ من قريش أن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، قال: يقول أبو لهب: تباً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿تبّت يدا أبي لهب وتب﴾ (٣٥) السورة كلها.

---

(٣٢) سورة فصلت: ٤١/ ٣٣.
(٣٣) أي تطلعوا إليه لمواجهته ومعاداته.
(٣٤) سورة الشعراء: ٢٦/ ٢١٤.
(٣٥) سورة المسد: ١/ ١١١.

وينقل عن يعقوب بن عتبة أنه قال : لما أظهر رسول الله ﷺ الإسلام ومن معه، وفشا أمره بمكة، ودعا بعضهم بعضا، فكان أبو بكر يدعو ناحيته سراً، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك، وكان عثمان مثل ذلك، وكان عمر يدعو علانية، وحمزة بن عبد المطلب، وأبو عبيدة بن الجراح فغضبت قريش من ذلك، وظهر منهم لرسول الله ﷺ الحسد والبغي وأشخص بهم منهم رجال فبادوه، وتستر آخرون وهم على ذلك الرأي إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله ﷺ.

وكان أهل العداوة والمبادأة لرسول الله ﷺ وأصحابه الذين يطلبون الخصومة والجدل : أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس بن عدي، والوليد بن المغيرة، وأمية وأبي بن خلف، ثم ذكر ثلاثة عشر رجلاً من كبار خصوم الدعوة وعقب على هذه الرواية ابن سعد بقوله : ولم يسلم منهم أحد إلا أبو سفيان والحكم بن العاص.

ويختم ابن سعد هذا الفصل برواية السيدة عائشة والتى تحكى فيها ما قاله رسول الله ﷺ عن جاريْه : «كنت بين شر جارين، بين أبى لهب، وعُقبة بن أبى معيط، إن كانا ليأتيان بالفروث (٣٦) فيطرحانها على بابى حتى إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابى، فيخرج به رسول الله ﷺ فيقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا!! ثم يلقيه بالطريق» (٣٧).

ففى هذه الروايات نرى بدء الدعوة سراً، مدة ثلاث سنوات، ثم الإعلان بالدعوة، وبيان أن أحسن الدعاة هو محمد ﷺ وأن من استجاب للدعوة كان من أحداث الرجال وضعفاء الناس، وتبين لنا رواية ابن عباس دعوته ﷺ لعشيرته الأقربين بعد أن أخذ منهم الحجة على صدقه، وعدم اتهامه وفي رواية ابن عتبة، نجد مشاركة بعض أصحابه ﷺ للدعوة سراً وبعض آخر يدعو علانية وجهرا «ثم معاداة القوم لرسول الله ﷺ وجهراً كذلك، مع بيان لأهل العداوة الظاهرة، ومآلهم.

---

(٣٦) الفروث تنطق كفلوس جمع فرث، وهو ما يخرج من الكرش، انظر : مادة فرث في مختار الصحاح : ٤٩٥.

(٣٧) انظر : الطبقات الكبرى : ١/ ١٩٩-٢٠١.

وأخيرا تذكر لنا السيدة عائشة ما لقيه رسول الله ﷺ من أذى جاريْه الكافرين حين يرميان بمخلفاتهم وفضلاتهم على باب رسول الله ﷺ!! ويخرج الرسول ﷺ بها قائلاً أي جوار هذا!! ثم لا يطرحها أمام بابيهما بلْ يلقيها بالطريق!! ﷺ وصدق الله إذ قال فيه ﴿وإنك لعلى خُلُق عظيم﴾ (٣٨).

وهكذا توضع الروايات جنباً إلى جنب دون عرض لها، أو تحليل لما فيها وإذا كان عنوان الموضوع الذى اندرجت هذه الروايات تحته عاما فإنا كنا نتوقع من ابن سعد أن يجمع كل الروايات التى تتعلق به، دون أن يجزيء الحديث عنه، ويكرر بعضه في مواضع أخرى. فقد وضع عنواناً آخر - بعد صفحات قليلة (ذكر دعاء رسول الله ﷺ قبائل العرب في المواسم)، وبعده مباشرة (ذكر دعاء رسول الله ﷺ الأوس والخزرج) وتناول هذا الموضوع نفسه تحت عناوين أخرى كحديثه عن (ممشي قريش إلى أبى طالب في أمره ﷺ) وغير ذلك. ونسوق تلك الرواية التى وضعها تحت العنوان الأول لنتبين مدى ارتباطها بالموضوع السابق، يقول عن غير واحد من الرواة : أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفيا، ثم أعلن في الرابعة فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين، يوافي المواسم، كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة : «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتَذلُ لكم العجم، وإذا آمنتم كنت ملوكاً في الجنة» وأبو لهب وراءه يقول : لا تَطيعوه فإنه صابىء كاذب، فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد، ويؤذونه ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ويكلمونه ويجادلونه ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول : «اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا».

فكان من سمي لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرض نفسه عليهم : هو عامر بن صعصة ومحارب بن خصفة وفزارة وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وكثير غيرهم فلم يستجب منهم أحد (٣٩).

---

(٣٨) سورة القلم : ٦٨/ ٤.

(٣٩) انظر : الطبقات الكبرى : ١/ ٢١٦-٢١٧.

وفي حديثه عن دعاء رسول الله ﷺ الأوس والخزرج ذكر أنه ﷺ أقام بمكة يدعو القبائل إلى الله ويعرض نفسه عليهم كل سنة بمجنة وعكاظ أن يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة، فليست قبيلة من العرب تستجيب لـه ويُؤذى ويُشتم حتى أراد الله إظهار دينه ونصر نبيه وإنجاز ما وعده فساقه إلى هذا الحي من الأنصار لما أراد الله بهم

من الكرامة فانتهى إلى نفر منهم وهم يحلقون رؤوسهم فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فاستجابوا لله ولرسوله فأسرعوا وآمنوا، وصدقوا، وآووا ونصروا، وواسوا وكانوا والله أطول الناس ألسنة، وأحدّهم سيوفاً. . . الخ [٤٠].

ولعل هذا التمزيق للموضوع الواحد، والتفتيت لعناصره وتداخل بعضه في بعض أحياناً راجع إلى محاولة الالتزام بالترتيب الزمنى للأحداث وكان الأجدر أن يجمع هذه الروايات في شق واحد، وأن يضمها إطار واحد لتكتمل أجزاء الموضوع وعناصره ولو امتدت أحداثه سنين عددا.

وأما تناول ابن سعد للتراجم فقد كان حسب ترتيبه الزمني والمكاني تناولاً مفرقاً غير متكامل، كما سبق في تقريرنا لموضوعاته، حتى لنجد للصحابي الواحد ثلاث تراجم في مواضيع مختلفة، يتداخل بعضها في بعض، إلى الحد الذى يكرر فيه ما ذكره في موضوع من الروايات في مكان آخر، وإن كان يعيد ترتيب هذه الروايات بشكل آخر. حدث هذا في ترجمته لأبى موسى الأشعري فقد أعاد ترتيب كل الروايات التى ذكرها في الموضع الأول [٤١] عند حديثه عمّن يُفتى بالمدينة في الطبقة الثانية من المهاجرين[٤٢]، ولذلك طالت الترجمة في هذا الموضع وبلغت اثنتي عشرة صفحة، وهي لاتتجاوز صفحة واحدة في الموضع الأول، بينما تجد الموضع الثالث [٤٣] لا يتجاوز ثمانية أسطر، يمكن الاستغناء عنها لأن ما احتوته دخل في الموضعين السابقين، وكان يجب على المؤلف أن يجمع الترجمة في موضع واحد، وأن يحيل عليها كلما أراد ذلك حتى لا يكرر نفسه ويشتت الباحث أو القارىء.

---

(٤٠) انظر: المصدر السابق: ٢١٧/١.
(٤١) انظر: الطبقات الكبرى: ٣٤٤/٢-٣٤٥.
(٤٢) انظر: المصدر السابق: ١٠٥/٤-١١٦.
(٤٣) المصدر السابق: ١٦/٦.

وأما تصور ابن سعد لموضوعات الترجمة الذاتية، فقد كان غير مكتمل كذلك إذْ يعرض بعض الروايات عن صاحب الترجمة تحت عنوان لا يمت بصلة إلى تلك الروايات، ففي حديثه عن الذين أفتوا بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ وبعد ذلك، يذكر أن أبا موسى الأشعري منهم، وكنا نتوقع أن يسوق بعض الروايات عن إفتائه، والقضايا التى تناولها، ولكنه يذكر خلاف ذلك. فمما يذكره في هذا الموضع أن رسول الله ﷺ سمع قراءة أبى موسى الأشعري فقال: لقد أوتي هذا من مزامير آل داود. وأن أبا موسى قام ليلة يُصلي فسمع أزواج النبي ﷺ صوته وكان حلو الصوت، فقمن يسمعن، فلما أصبح قيل له: إن النساء كن يستمعن! فقال: لو علمت لحبرّتُكن تحبيرا ولشوقتكن تشويقا.

ويروى عن قتادة أن أبا موسى قال: لاينبغى للقاضي أن يقضي حتى يتبين له الحق كما يتبين الليل من النهار، فبلغ ذلك عمر فقال: صدق أبو موسى!.

وفي الموضع الثاني الذى أطال فيه تناول اسم أبى موسى وأنه يدعى عبد الله بن قيس بن سليم، واستطرد في الحديث عن نسبه ثم روى أنه أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة ثم قدم مع أهل السفينتين، ورسول الله ﷺ بخيبر، وذكر ابن سعد في الموضع الثالث من الترجمة هذه الرواية، مع ذكر رواية شيخه الواقدي التى تقرر أنه أسلم بمكة ولم يهاجر إلى الحبشة بل وافق قدوم المهاجرين من الحبشة قدومه وأهله رسول الله ﷺ بخيبر، وأيّد الواقدي رأيه بأن موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وأبا معشر لم يذكروه فيمن هاجر إلى أرض الحبشة.

ثم تناول ابن سعد طرفاً من حياة الأشعري وأسرته وانتقاله إلى البصرة والياً عليها لعمر بن الخطاب، وعزله ونزوله الكوفه، وأخلاقه، ومرضه، ووصيته، ووفاته سنة اثنتين وخمسين للهجرة على رأي الواقدي وذلك في خلافة معاوية بن أبى سفيان، ولكن ابن سعد يعقب على ذلك بقوله: وسمعت بعض أهل العلم يقول: إنه مات قبل هذا الوقت بعشر سنين سنة ثنتين وأربعين (٤٤).

---

(٤٤) انظر: الطبقات الكبرى: ٤/ ١٠٥-١١٦.

ويبدو من ترجمة ابن سعد لأبي موسى فيمن نزل بالكوفة من أصحاب رسول الله ﷺ أنها ترجمة تفي - إلى حد ما - بهيكل سيرة أبي موسى الأشعري، وتعطينا كذلك تصوراً عن بداية التأليف في التراجم والذى يرجع إلى ألف ومائتى عام تقريباً منذ صنف كتاب الطبقات.

الترتيب الزمني والمكاني :

سبق أن قررنا أن ابن سعد اتخذ عنصرى الزمن والمكان في تراجم الصحابة والتابعين، وقد عنى بعنصر الزمن السبق إلى الإسلام، وجعل محوره الأساسي الهجرة والاشتراك في غزوة بدر، ثم عرج على الأنصار البدريين، وغير ذلك ما عرضناه في ثنايا موضوعات الطبقات. وعنى بالعنصر المكاني الأمصار التى نزلها الصحابة رضوان الله عليهم، ومن خلفهم من التابعين العلماء والفقهاء طبقة تلو الأخرى، والطبقة عنده تساوى عشرين سنة تقريباً، وقد بدأ بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل السلام، ثم مكة، والطائف وغير ذلك مما أشرنا إليه آنفاً، وقلنا إن العنصر الزمني قد اعتبر كذلك وتداخل مع العنصر المكاني عند الحديث عن نزول الصحابة والتابعين إلى الأمصار وترجمتهم حسب أماكنهم التى نزلوا بها.

وأما السيرة النبوية فقد عرض ابن سعد وقائعها حسب الترتيب الزمني، وتبعاً للطريقة الحولية التى سبقه بها ابن إسحاق المتوفي سنة ١٥٢هـ في سيرته، وشيخه الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ في كتابه «التاريخ الكبير»، والهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ كذلك وغير هؤلاء.

وقد تخللت السيرة موضوعات عديدة لا ترتبط بزمن معين، بحيث لو نقلناها إلى أماكن أخرى، أو ذيّلنا بها وقائعها ما اختلف الأمر، وينطبق ذلك على ما تناوله ابن سعد من دلائل نبوته ﷺ وبيان صفاته في التوراة والانجيل، وسماته الخَلْقية والخُلُقية التى استغرقت وحدها مائتى صفحة أو يزيد.

ومن عيوب الطريقة الحولية أنها تفتت الأحداث وتبعثرها كما سبق أن بيّنا ذلك عند الحديث عن الدعوة إلى الإسلام، مما يشتت القارىء ويوزع جهده.

تسجيل النصوص الأدبية :

من سمات كتب التاريخ والسيرة المتقدمة تأليفاً مزج الأدب بالوقائع التاريخية وتسجيل النصوص الأدبية شعراً أو نثراً، باعتبار الأدب وسيلة الاعلام في تلك العصور، فضلاً عن انعكاس ثقافة الأمة وحضارتها فيه، ولقد كانت الفصاحة والبلاغة ميزة أصيلة عند العرب، وما رأينا أمة غيرهم تقيم أسواقاً للمنافسة والسبق في البيان كأسواق عكاظ والمجنة وذى المجاز، ولذا أنزل القرآن يتحداهم من جنس ما نبغوا فيه، وتدرج في تحديه حتى طالبهم بقوله «فلْيَأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين» [٤٥] وعجز القوم مع فصاحتهم وعلو بيانهم، ولا يزال التحدي قائماً.

فلا عجب – إذن – أن نرى هذا الاهتمام البالغ بتسجيل نصوص الشعر والخطب والرسائل والمحاورات في كتب السيرة والتاريخ.

ولكن الملاحظة التى رأيناها في طبقات ابن سعد أن الشعر بصفة خاصة ليس كثيراً، إذا قارناه بما تضمنه كتاب السيرة لابن هشام مثلاً، ولم نجد استشهاداً به إلا في مواضع قليلة، بل يندر وجوده عند تاريخ فترة ما بعد الهجرة، وكذلك في تراجم الصحابة والتابعين. إنه لم يذكر بيتا واحداً في غزوة بدر وغزوات أخرى كثيرة، بينما نجد ابن هشام في سيرته يذكر عدة قصائد طويلة في غزوة بدر للمسلمين والمشركين، وفي غيرها كذلك.

وهناك موضع واحد أطال فيه ابن سعد بالاستشهاد بالشعر وجمع فيه أطرافاً من قصائد متعددة قيلت في رثاء النبي ﷺ وبلغت أبياتها مائتين وخمسة عشر ذكرها كنماذج قيلت في رثائه ﷺ.

وعلى كل حال فهذه النصوص الشعرية، وما احتواه كتاب الطبقات من محاورات ورسائل وخطب ذخيرة عظيمة تعكس صورة الوقائع والأحداث التى تناولها المؤلف في كتابه.

مآخذ على الطبقات :

أولاً : مما يؤخذ على ابن سعد في طبقاته أن شخصيته تكاد تتوارى وراء الروايات

---

(٤٥) سورة الطور : ٥٢/٣٤

وكثرتها، إذْ طغت طريقة الرواية والأسانيد على نقده وعرضه وتحليله للوقائع والأحداث، فلا نكاد نرى للمؤلف تعليقاً على رواية أو سند إلا بمشقة، وما وجد من ذلك يدل على قدرة نقدية ممتازة، كنا نود أن يتوسع المؤلف فيها.

وإذا كان المؤرخون والمحدثون قد وثّقوا ابن سعد، وعدّلوه فإن المادة العلمية التى جمعها عن طريق الرواية منتقاة من بين حشد كبير من الروايات، ومختارة مما لدى شيوخه ومعاصريه، غير أننا لا نقنع بهذا التوثيق الذى درج عليه علماء السلف، رضوان الله عليهم، في شتى العلوم الإسلامية، وكنا نطمع في أن يدلي ابن سعد برأيه في تلك الروايات تجريحاً أو تعديلاً، أو عرضاً وتحليلاً، وأن تظهر شخصيته بوضوح أمام هذه الوقائع والأحداث التى تضمنتها تلك الأساليب، فليست مهمة المؤرخ نقل ما قيل، وتسجيل ما وقع فقط بل توجيه هذه المادة واستخلاص ما فيها من أحكام وقواعد وأحوال مختلفة للأفراد والجماعات وتحليل وقائع الصحابة والتابعين، وآمالهم وطموحاتهم، باعتبارهم القدوة الحية التى تثير الطاقة الكامنة في نفوس الأجيال المؤمنة من بعدهم، لكنه اكتفى بتسجيل الأخبار، وإن كان في انتقاء رواتها توجيه بالنقد الضمني، فإن هذا لا يكفينا، ولا يشبع نهم البحث فينا.

ثانياً: بدت بعض الإسرائيليات المنكورة في كتاب الطبقات، وتسربت تلك الروايات التى تحمل خرافات بنى إسرائيل، مما أشاعه بعض اليهود الذين أسلموا في الصدر الأول كوهب بن منبه، وكعب الاحبار وغيرهما، وقد ضربنا أمثلة – من قبل – لهذه الإسرائيليات، ووددْنا لو أن ابن سعد طهّر طبقاته منها، اكتفاء بتنزيل الحكيم الحميد، والسنة النبوية المَطهرة، ولكنا نقرر أنها ذكر منها قليل، وبخاصة في تاريخ ما قبل البعثة النبوية، مما يخفف عن ابن سعد هذا المأخذ إلى حد ما.

ثالثاً: لقد كان التزام ابن سعد بالطريقة الحولية، في ترتيب الأحداث وإيثاره لعنصري الزمان والمكان في السيرة والتراجم سبباً في تمزيق الحوادث، وتفتيت الموضوعات، التى كان من الممكن أن تجمعها وحدة واحدة، وقد أشرنا من قبل إلى تناوله لموضوع دعوة رسول الله ﷺ إلى الإسلام وقلنا إنه تناوله في أكثر من موضع وتحت عدة عناوين، ولو أن المؤلف جمع الروايات المتماثلة في موضوع واحد، دون تمزيق لها، وتشتيت لعناصرها لكفانا عناء وجهدا كبيرين.

وأما العنصر المكاني والتزامه فقد ألجأ المصنف إلى تكرار التراجم في أكثر من موضع، وتزيّد هنا، وتنقّص هناك، بل إن هذا التكرار للترجمة الواحدة قد بلغ أحياناً ثلاث مرات كما سبق أن قلنا في ترجمة أبي موسى الأشعري، وقد يقبل التكرار للترجمة الواحدة إذ أضاف جديداً للسيرة الذاتية، ولكنه لا يقبل بحال إذا تكررت الروايات بأسانيدها ولم تضف جديداً، فقد نقل ابن سعد كل الروايات التى ذكرها في ترجمة الأشعري من أحد مواضعه إلى موضع آخر - كما سبق أن بيّنا - ولكن بشكل جديد، وهذا تطويل لا داعي له، وتكرار لا فائدة منه، بل فيه مضيعة لوقت الباحث، وبعثرة لجهده، ولو أنه ترجم للصاحبي أو التابعي في موضع واحد وأحال عليه في كل مرة لكان أولى وأجدر. ومما يؤخذ عليه أيضاً بصدد الترجمة أنه كان يترجم للصحابي مثلاً تحت عنوان «ذكر من كان يفتى بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ وبعد ذلك» ولا يسوق ما يلائم هذا العنوان، أو يناسبه.

رابعاً: ونلاحظ في الطبقات أن المؤلف - رحمه الله - كان يقطع الروايات، ويدخل بعضها في بعض دون أن تكتمل الرواية الأصلية التى ساقها أولاً. فإذا تحدث عن نبي الله نوح عليه السلام يسوق رواية عن هشام بن السائب الكلبي، ثم يدخل في أثنائها رواية أخرى حتى إذا انتهى ما ينقله منها يقول: «ثم رجع الحديث إلى حديث هشام بن السائب»(٤٦). وفي مواضع أخرى كثيرة(٤٧) نجد نماذج شتى لتقطيع الروايات وعدم إكمالها مما يمزق الحدث الواحد، ويشتت ذهن القارىء.

ومما يدخل تحت هذا المأخذ ما عابه المحدثون على ابن سعد من جمعه أسانيد متعددة، لمتن واحد، ولعل عذره في ذلك أنه أراد الإيجاز حيث تشابهت الروايات وتماثلت، وأنه قد يتسامح في السيرة فيما لا يحدث مثيله في السنة.

خامساً: في التراجم التى تناولها ابن سعد نلاحظ أن عدداً غير قليل من الصحابة والتابعين يترجم لهم المؤلف ترجمة لا تتجاوز السطر الواحد، أو عدة أسطر، وبعض هؤلاء كانوا قريبي عهد بابن سعد أو أنهم عاصروه، لكن اعتماده على الرواية - فيما

---

(٤٦) انظر: الطبقات الكبرى: ١/ ٤٢.
(٤٧) انظر: المصدر السابق: ١/ ٨٣، ٢٣٠، ٢٣٦ وغير ذلك كثير.

يبدو - جعلت الترجمة تتضائل، وتقل قيمتها، إذا لم تتجمع روايات مستفيضة لصاحب الترجمة. ولو أن المؤلف تحرر من هذا وذكر ما يعرفه عن صاحب الترجمة ونشاطه العلمي، وصفاته، وطرفاً من سيرته لكان أجدى وأنفع كما فعل هو نفسه في كثير من تراجم كبار الصحابة والتابعين.

سادساً: لا يذكر لنا ابن سعد في طبقاته المصادر التى نقل عنها، فإذا كانت الرواية وطريقة الإسناد قد شاعت في الكتاب، فإن مما لا يماري فيه أن كثيراً ممن سبقوه إلى التأليف في السيرة كإبن إسحاق، والهيثم بن عدي، وموسى بن عقبة، والواقدي وغيرهم قد تركوا مصنفات أفاد منها ابن سعد، غير أنه لم ينص على ذلك، ولعل عذره أن طريقة التأليف كانت في بدايتها، ولم تكن قد نضجت بعد، وأنه اعتمد على طريقة السند التى تنسب الأخبار إلى قائلها، والوقائع إلى أصحاب الكتب ومؤلفيها.

سابعاً: ومما يؤخذ على ابن سعد أن في مصادر رواته ضعفاء كالواقدي وهشام بن السائب الكلبي وأبى معشر، وهو نقد وجهه علماء الحديث لشدة تحريهم وتدقيقهم في الرواية، ولكن معظمهم يقبلون هؤلاء في السيرة والأخبار والمغازي لأنها في نظرهم أقل درجة من علم الحديث لكن بعض علماء الحديث وثّق الواقدي شيخ ابن سعد، واستفتاه الإمام مالك في بعض ما استشكل عليه، وقال عنه الداروردي «ذاك أمير المؤمنين في الحديث».

وإذا كان فريق من علماء الحديث يضعف هؤلاء، فما الذى يمنع ابن سعد وقد وثّقه علماء الجرح والتعديل، وقدمه بعضهم على شيخه - أن ينتقى من رواياتهم وأسانيدهم ما يصح عنده؟! وعلى هذا فإنا لا نعد هذا النقد من بين مآخذه. وكفى بالمرء نبلاً أن تُعد معايبه.

القيمة العلمية والتاريخية للطبقات الكبرى:

أولاً: يُعد كتاب «الطبقات الكبرى» سجلاً حافلاً موثقاً في كثير من رواياته، التى خدمت علوماً متعددة، في مقدمتها علوم السنة والحديث والسيرة النبوية، وعلم الرجال والطبقات وغير ذلك.

وهذا الكم الهائل من الروايات المأثورة والتى احتواها كتاب الطبقات إن هو إلا مادة غزيرة للدرس والبحث، يجب أن يعكف عليها الباحث المعاصر ويستخرج منها الحقائق التاريخية، بمعرفة حال الأسانيد، وبمدى صحة الروايات، طبقاً لأسس علم الجرح والتعديل، وملاحظة مواطن القوة والضعف والتبصر بآراء العلماء الأفذاذ، والرجوع إلى كتب السنة الصحيحة الموثقة. ومما يدفع الدارس المعاصر لهذا العمل أن المؤلف - رحمه الله - لم يتدخل بشخصيته في توجيه الروايات بناء على ما اشتهر عند بعضهم «من نقل إليك فقد حملك» أي فقد ألقى على عاتقك مسئولية التّحرّي والتدقيق للروايات وتمحيصها، وإذا كان ابن سعد كما ذكر كثير من المحدثين قد استقصى جهده في توثيق الروايات، وانتقائها واختيار رواتها من المحدثين الثقات العدول فإن على الباحث في السيرة وعلم الرجال أن يتحرى الدقة وأن يمحص هذا التراث العظيم الذى مرّ على تسجيله ما يقرب من ألف ومائتى عام وقيض الله حفظه من الضياع.

ثانياً: لا يستغنى دارس معاصر لسيرة الرسول ﷺ وحياة المجتمع الإسلامي في القرنين الأولين عن كتاب الطبقات الذى استطاع مصنفه أن يعكس الحياة الإسلامية في الصدر الأول من جوانبها المتعددة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، ويتطرق كذلك إلى الحياة الخاصة لكثير من الصحابة والتابعين في بيعهم وشرائهم، وطعامهم، وثيابهم، وغير ذلك وتناول أيضاً النشاط العلمي، ومظاهره، والنواحى الثقافية، وجوانبها وتتبع الصحابة أنىّ ساروا، وألقى الضوء ساطعاً على الأمصار التى نزلوها، وعلى تلاميذهم وأتباعهم الذين تلقفوا منهم مشاعل النور.

إن دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم في مصادره الموثقة وسيلة لغرس مثل الإسلام وآماله في قلوب الأجيال المسلمة وعامل على إلقاء حيوية ذكريات مجيدة للإسلام تبرز أهمية هذا التراث العظيم والاعتزاز به (٤٨).

---

(٤٨) انظر: علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال: ٢٦٨-٢٦٩، ترجمة الدكتور أحمد صالح العلي، مكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٦٣ م.

ثالثاً : يحتوى كتاب «الطبقات» على كثير من الترجمات المستفيضة للصحابة والتابعين، من العلماء والفقهاء والمحدثين والقادة والأمراء والخلفاء وغير ذلك.

ويُعد ما كتب عن هؤلاء في ذاك العصر المتقدم وثيقة بالغة الأهمية، إذْ دُوّنت بيد شهد لصاحبها المحدّثون بالعدالة والتوثيق وهي تعطينا صورة حية لهؤلاء الرجال الذين كونوا المجتمع الإسلامي الأول، وصحبوا مؤسسه محمدا ﷺ وتبين لنا كذلك من تبعهم بإحسان وإيمان وسار على دربهم من التابعين، لذلك نرى أنه من واجب الباحث المعاصر أن يرجع إلى ما كتب عن هؤلاء الرجال من السلف الصالح في «الطبقات» باعتباره مصدراً أصيلاً في التراث الإسلامي.

رابعا : تضمن كتاب «الطبقات» فصولاً عن علامات النبوة ودلائلها وفصولاً عن الصفات الخَلْقية والخُلُقية والشمائل التى كانت سجية في محمد ﷺ وهذه الفصول كانت أصولاً لَعلم «دلائل النبوة» و «الشمائل» التى أفردها المصنفون بالتأليف، وتأثروا بالنهج الذى سار عليه ابن سعد ونقلوا عنه كثيراً من الروايات بأسانيدها، باعتباره صاحب السبق في هذا الميدان، وتستطيع أن ترى ذلك في «حلية الأولياء» لأبى نعيم الأصبهاني المتوفى سنة ٤٧٠هـ و«دلائل النبوة» له أيضاً، وكذلك «دلائل النبوة» لأبى بكر أحمد البيهقي المتوفى سنة ٤٥٣هـ. وقبلها بفترة طويلة لا تبعد عن سنة وفاة المؤلف إلا بأربع وثلاثين سنة وجدنا أبا زرعة الرازي المتوفى سنة ٢٦٤هـ يصنف كتاباً على هذا المنوال الذى رسم ابن سعد أصوله. واسم كتابه «دلائل النبوة» كذلك.

خامساً : ولكتاب «الطبقات» أثر واضح في المصنفين في علم التاريخ وعلم الرجال. فأما الأول فنجد آثار ذلك بيّنة في اعتماد كثير من كُتاب التاريخ، وكُتاب السيرة على كتاب ابن سعد، كما نرى ذلك في مصنفات «تاريخ الإسلام» للحافظ أبى عبد الله الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ و«البداية والنهاية» لإبن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ و«النجوم الزاهرة» لإبن تغري بردي، و «إمتاع الأسماع» للمقريزي وغير ذلك.

وأما في علم الرجال فإن كتاب الطبقات يُعد من أوائل ما ألّف في هذا العلم، لم يسبقه في ذلك فيما نعلم إلا مصنف شيخه الواقدي والمسمى بنفس الإسم وتلك حقيقة تجعلنا ندرك قيمة كتاب ابن سعد باعتباره مصدراً سلفياً قديماً وأحد النماذج الأول في موضوع «الرجال» (٤٩) وقد كانت بصمات ابن سعد وشيخه الوقادي ظاهرة في كتب التراجم باعتبارهما قد حازا الريادة في هذا المجال. وترى أثر ابن سعد واضحاً في كتب «معرفة الصحابة» لابن منده أبى عبد الله محمد ابن إسحاق حفيد أبى عبد الله محمد بن يحيى و «تاريخ دمشق» لإبن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ و«تجريد أسماء الصحابة» و«سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي، و«الإصابة في تمييز الصحابة» و«تهذ يب التهذيب» لإبن حجر العسقلاني وغير ذلك من كتب الرجال التى تأثرت به تأثراً مباشراً أو غير مباشر.

سادساً: ومما يعطى قيمة علمية وتاريخية لكتاب «الطبقات» أن الأساطير والخدر افات فه قللة، لا تشيع إلا فى تاريخ ما قبل الإسلام، وتنحسر أو تندر في السيرة والتراجم. وهذا يدل على عقلية علمية لا تقبل الأسطورة والخرافة في تراثنا.

سابعاً: ويحتوى الطبقات على كثير من النصوص الأدبية التى تهم الدارسين للأدب واللغة كالخطب والرسائل والمحاورات والشعر وإن كان الشعر فيه أقل حظاً من الأنواع الأخرى. وقد كان اهتمام المصنفين بهذه النصوص راجعاً إلى شغفهم بها، ومحاولتهم توثيق الأخبار والوقائع، والتشويق إليها، والأدب - كما يقال - صدى للبيئة وانعكاس لتفاعل الإنسان معها -، وما احتواه كتاب الطبقات من أنواع النصوص الأدبية ثروة جديرة بالاهتمام والدراسة.

لذلك كله نرى بعد اتضاح قيمة كتاب الطبقات وأهميته - أن يحقق تحقيقاً علمياً متكاملاً، بأن تمحص رواياته ويعلق عليها وأن تخرج أسانيدها، وتتكشف أحوال رجالها وفقاً لأصول علم الجرح والتعديل، وأن يتميز المكرر منها، وينبه على ما احتواه بعضها من مذكرات وخرافات فضلاً عن مقابلة النسخ المخطوطة والمطبوعة بعضها ببعض، وهو عمل مضن، وجهد مضاعف، لكن ثمرته طيبة ومرجوة.

---

(٤٩) انظر: تقديم الدكتور احسان عباس للطبقات: ١/ ١٤.

وإخراج «الطبقات» بهذه الصورة الجديدة ييسر سبل البحث والدراسة لمصدر أصيل من تراثنا الإسلامي العظيم.

ثبت بأهم المصادر

القرآن الكريم :

- البداية والنهاية لإبن كثير (إسماعيل بن عمر المتوفى سنة ٧٧٤هـ) طبعة دار الفكر بيروت.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي - دار الكتاب العربي - بيروت.
- الطبقات الكبرى لإبن سعد. طبعة دار صادر ودار بيروت، بيروت وتقديم الدكتور إحسان عباس طبعة سنة ١٣٨٠هـ سنة ١٩٦٠م.
- على التوارة لعلاء الدين الباجي المتوفى سنة ٧١٤هـ تحقيق الشيخ أحمد حجازي السقا، مطبعة الحلبي، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- الفهرست لابن النديم - طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م - طبعة دار المعرفة - بيروت.
- القرآن والتوراة والإنجيل والعلم لموريس بوكاي - طبعة دار المعارف. بدون تاريخ.
- قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي تحقيق محمد البيطار - طبعة عيسى الحلبي.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضع الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الشعب.
- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، مطبعة السلفية.
- وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق الدكتور إحسان عباس - طبعة دار الثقافة - بيروت.